

تصنيف القيم وفقا لرؤية الفرق الكلامية و المتصوفة.

ا.د. موسى معيرش الجزائر

المقصود بالفرق الكلامية الإسلامية، مختلف الفرق الكلامية التي استعانت بالعقل للدفاع عن العقيدة الإسلامية دفاعا عقليا، مستعينة في ذلك بالأدوات اليونانية المتمثلة أساسا في المنطق الارسطوطاليسي، ورغم تنوع هذه الفرق وتناقض أهدافها السياسية و خلفيتها الايديولوجية في كثير من الأحيان إلا أنها سعت في عموميتها الى الدفاع عن العقيدة الاسلامية وتبريرها.

و كان لها الفضل الكبير في نشر الاسلام في العديد من الأوقات ، أما عن أهم هذه الفرق ، فنستطيع ذكر كل من : المعتزلة، الأشاعرة، الشيعة، وغيرهم كثير، وسنكتفى هنا بعرض رؤية هذه الفرق الكلامية للقيم و تصنيفها. مما دفعنا إلى تخصيص مطلب لكل فرقة من هذه الفرق الثلاثة، نتحدث فيه عن الخلفية الفكرية للفرقة تمهيدا لعرض التصنيف الذي نقدمه للقيم الفلسفية و العقلية لهذه الفرقة أو تلك

كما سنعمل على عرض التصنيف الذي تقدمه المتصوفة بشكل عامل للقيم، ذلك أن لهؤلاء اهتمام واضح بهذا الموضوع، غير أنه نتيجة لتعذر علينا الحديث عن تصنيفات المتصوفة بشكل مفصل في هذه الدراسة، لذا سنسعى إلى تقديم فكرة عامة عن الموضوع، أملين في العودة إلى الحديث عن القيم عند المتصوفة في دراسات قادمة إن شاء الله.

المطلب الأول - تصنيف القيم عند المعتزلة.

تعد المعتزلة أهم وأكبر الفرق الإسلامية الكلامية في كل العصور ، رغم ذلك أنه لم يعد لها وجود عيني في عصرنا، كجماعة منظمة كما كانت عليه في

العصور الوسطى ، غير أن ما تركته من آثار تركته علمية تتحدث عنها، تجعل منها في طليعة الفرق الكلامية المؤثرة في زماننا .

وقد تعددت الروايات حول سبب تسمية المعتزلة بهذا الاسم ، وهكذا نجد أنصارها ، يقولون أن المقصود بهذا الاسم اعتزل الباطل، في حين نجد خصومها يرون أن المقصود به أن أصحابها اعتزلوا الحق، بغض النظر عن هذا الرأي أو ذاك فقد كَوّن هذا الاعتزال منظومة فكرية متماسكة قوية، اختلف فيها الناس وحوها. أولاً : الخلفية الفكرية:

من خلال عودتنا للأصول الخمسة ، التي قامت عليها المعتزلة بمختلف رجالاتها ، نستطيع القول وبدون تردد، أن هذه المدرسة الكلامية عاجت مبكراً مسألة القيم، الدينية منها والفلسفية ، فقد عرضت لمسألة الحرية، والعدالة وهي من القيم الفلسفية الهامة، كما عرضت لموضوع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا من المسائل القيمة الدينية، كما أن حديثها وإثارتها لمشكلة خلق القرآن تكشف مرة أخرى عن هذا الاهتمام الكبير بموضوع القيم.

مع أن أعلام المعتزلة كثر ، ويوجد اختلافات فكرية كبيرة بينهم، إلا أن هناك أصولاً خمسة تجمعهم، نجعلها في مايلي : التوحيد، العدل ، المنزلة بين المنزلتين، الحرية وأخيراً الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهل نستطيع الحديث عن قيم عند المعتزلة أولاً؟ وثانياً هل يمكننا تصنيف هذه القيم؟

قبل الاجابة عن هذه التساؤلات، نود أن نقدم فكرة عن الاصول الخمسة للمعتزلة، حتى يتمكن القارئ الكريم ، من فهم فلسفة القيم عند المعتزلة ، ومن ثم فهم التصنيف الذي تقدمه :

1 - التوحيد :

شغلت إشكالية التوحيد والتعدد الانسان في مختلف العصور و الازمان ، ورغم أن أتباع الديانات السماوية، يجمعون عموما على القول بالتوحيد، إلا أن الخلاف بينهم يكمن في مفهوم التوحيد وطبيعته.

وهذا ما يجعل المعتزلة ،تسعى على تقديم رؤية مختلفة عن تلك التصورات، التي عرفها اليهود، أو تلك التي عرفها النصارى، بل وعن تلك التي قدمتها بعض الفرق الكلامية الاسلامية.

نتلخص رؤية هؤلاء في أن الله واحد لا شريك له في الوجود، ولم يشترك معه أحد في خلق الكون، كما يتميز بوحداية القدم، فليس هناك قديم سوى الله، وفي هذا الجانب يذهبون بعيدا لدرجة اننا نجدهم ينكرون حتى قدم كلام الله المتمثل في القرآن الكريم. وبهذا فهم يرفضون كل تشبيه، ويقولون بالتنزيه المطلق.

2- العدل :

العدل هو الاصل الثاني من أصول أهل الاعتزال، ونلخص هذا الاصل أن الانسان مسؤول مسؤولية كاملة عن أفعاله، وأن الله لا يظلم أحد من عباده، وأن الله لا يتدخل في أفعال العباد، ليس لعجز منه أو عدم قدرة ، وإنما لكونه اعطى العباد الحرية التي تجعلهم قادرين على الفعل، وكلفهم بأداء الافعال.

وهذا يترتب عليه عدم تدخل الخالق في هذه الافعال، مادام سيحاسب مرتكبها في النهاية ، ذلك أنه لا يمكن عقلا أن نجبر على أفعال معينة ومن بعدها يساعد على فعلها ، أو يحول دو ذلك.

3- الوعد و الوعيد:

بعد أن ترك الله لعباده حرية أفعالهم ، جعل الامر مربوط بمجازاة من يلتزم الاوامر والنواهي، وفي الوقت نفسه يعاقب من يتجاوز ذلك، وهذا ما يقصد به الوعد والوعيد.

فالوعد عبارة عن خبر يتضمن نفع إلى المحسن ، أو دفع ضرر ، بينما الوعيد هو عكس ذلك أي أنه خبر يتضمن إيصال ضرر أو تفويت نفع.

4- المنزلة بين المنزلين :

يذكر العديد من مؤرخي الفرق الكلامية إلى أن فكرة مرتكب الكبيرة، كانت السبب المباشر في تكوين ونشأة المعتزلة، فقد دخل أحدهم على الحسن البصري، وهو في حلقة درس وسأله عن مرتكب الكبيرة ، هل هو في النار كما تقول الخوارج أم في الجنة كما تقول المرجئة.

وقبل أن يقدم الحسن البصري جوابه ، تدخل واصل بن عطاء، وذكر أن مرتكب الكبيرة، دون الشرك بالله، لا تقود صاحبها إلى الجنة ولا إلى النار، وإنما إلى منزلة بينهما، هي المنزلة بين المنزلتين.

5 - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

ينقل فيصل بدير عون عن القاضي عبد الجبار، أن : " الأمر عبارة عن قول سلطة عليا سواء ، أكان فردا أو جماعة ، لمن دون هذه السلطة: أفعال، أما النهي فهو كلام موجه من هذه السلطة لا يفعل.

أما المعروف فهو كل فعل عرف صاحبه أنه حسن أو قامت الأدلة على أنه كذلك. أما المنكر فكل فعل مناف للمعروف"¹ تجدر الإشارة إلى أن هذه التي أقامتها المعتزلة متكاملة متناسقة، وقد بقت المعتزلة وفيه لها، ولم تتردد لحظة في الالتزام بها والدفاع عنها، مستخدمة في ذلك مختلف الامكانيات الممكنة.

ثانيا - تصنيف القيم:

بعد أن استعرضنا، الاصول الخمسة التي قامت عليها المعتزلة نستطيع القول، أن فلسفة المعتزلة، ومختلف تصوراتها قامت على هذه المبادئ، وتبعاً لهذه الأصول نستطيع أن نصنف قيم المعتزلة على النحو التالي:

1 - القيم الايجابية والسلبية:

¹ - القاضي عبد الجبار نقلا عن : فيصل بدير عون : علم الكلام ومدارسه ، مكتبة الحرية ، القاهرة ، سنة 1982م ، ص222.

يمثل المعروف القيم الاخلاقية التي يجب الالتزام بها، والطلب من الناس إتباعها، أما المنكر فيعبر عن القيم الاخلاقية التي يجب النهي عنها، والطلب من الناس تجنبها، يفسر فيصل بدير عون المقصود بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند أهل الاعتزال بقوله: " يرى القاضي عبد الجبار أن الامر عبارة عن قول سلطة عليا سواء أكانت فردا أو جماعة لمن دونها أي دون هذه السلطة " أفعل" أما النهي فهو أيضا كلام موجه من هذه السلطة إلى من (أو من هم) دونها في الرتبة أن "لا يفعل".

أما المعروف فهو كل فعل عرف صاحبه أنه حسن أو قامت الادلة على انه كذلك. أما المنكر فهو كل فعل يعرف فاعله مناف للمعروف : أي كل فعل يعرف فعله أنه قبيح وغير مباح أو سائغ، ومن المحال ان يقع هذا الممنوع الاخير من الله وحتى إن وقع فلا يمكن أن يقال أو يطلق عليه أنه قبيح لأننا لا نعرف وجه القبح فيه ولا الادلة تنهض لثبات ذلك"²

و تخضع ممارسة فعل الامر والنهي عند المعتزلة إلى شروط، وهو ما يلخصه أحمد محمود صبحي في كتابه في علم الكلام، بقوله: " ومن شروط الامر بالمعروف أن يعلم أن ذلك لا يؤدي إلى مضرة أعظم منه، فإنه لو علم أو غلب على ظنه أن نهيه عن شرب الخمر يؤدي إلى قتل جماعة من المسلمين، لم يجب كذلك أن يعلم أو يغلب على ظنه أن لقوله فيه تأثيرا، فإن لم يعلم ذلك أو لم يغلب على ظنه فإنه يحسن وإن لم يجب.

كذلك أن يعلم أو يغلب على ظنه أنه لا يؤدي إلى مضرة في ماله أو في نفسه، إلا أنه بحسب اختلاف الاشخاص: فإن كان المرء بحيث لا يؤثر في حالة الشتم والضرب فإنه لا يكاد يسقط عنه، وإن كان ممن يؤثر ذلك ويحط مرتبته فإنه لا يجب"³

² فيصل بدير عون : علم الكلام ومدارسه، مكتبة الحرية الحديثة ، مصر ، سنة 1982م ، ص 224.
³ - أحمد محمود صبحي: في علم الكلام دراسة فلسفية لأراء الفرق الاسلامية في أصول الدين المعتزلة والاشاعرة، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، سنة 2009م ، الجزء الاول : المعتزلة ، ص 165.

ما نستطيع قوله ان القيم التي نستطيع استخلاصها من خلال الامر بالمعروف والنهي عن المنكر انها تجعل الانسان إيجابيا يساهم في بناء مجتمعه بتشجيعه على مكارم الاخلاق ومحاربه لقيم الفساد والانحراف بمختلف أشكاله. وتجعل من القيم ما هو إيجابي كالمعروف و ما هو سلبى كالمنكر، فما يؤمر بفعله إيجابيا وما ينهى عن تركه سلبيا.

2 - قيم الوسطية:

هي القيم التي تقع بين القيم المرفوضة والقيم المحببة، ويوضح فيصل بدير عون موقف المعتزلة من هذه المسألة بقوله: " هذا الاصل هو ما أجمع المؤرخون على أنه كان نقطة البدء التي تكون عنها مذهب المعتزلة. وهذا الاصل عندهم...يعنى أن مرتكب الكبيرة ليس مؤمنا ولا كافرا، هو في منزلة بين المنزلتين، كما قرر ذلك واصل بن عطاء الغزال ، حيث ذهب إلى أن هذه ، درجة بين درجتين، أو حكم بين حكمين أحدهما خاص بالمؤمن والاخر خاصة بالكافر"⁴.

و نوضح لنا الرؤية الوسطية عند المعتزلة بصورة أكثر وضوحا في مختلف المبادئ الخمسة التي تقوم عليها، ففيما يتعلق بالتوحيد، وهو الركن الأول ، نجدها تتخذ موقفا وسطيا بين من قال التجسيم كاليهود ومن قال بالتثليث كالنصارى وفي هذا نجد أحمد محمود مكي يقول: " يتفق المسلمون جميعا على توحيد الله ، ولكن المعتزلة تعنى بالتوحيد التنزيه المطلق لله عن صفات المخلوقين، وقد جاء قولهم في التوحيد معارضا للتصور اليهودي في الله من جهة و لآراء المجسمة والمشبهة و الحشوية جهة أخرى"⁵.

أما فيما يتعلق بالعدل الالهي فقد عمل المعتزلة بهذه الكيفية أي الوسطية فسعوا إلى استبعاد كل الآراء التي تتنافى مع عدله، كما استبعدوا كل الآراء التي تجعله يهمل العالم.

4 - فيصل بدير عون : ص 221.

5 - - أحمد محمود صبحي:ص119.

و لا يخرج موقفهم من الحرية من هذا التصور، حيث يترتب هذا الموقف عن موقفهم من العدل الالهي، و هكذا نجدهم يميزون بين نوعين من الافعال: إرادية و اضطرارية.

أما في مجال الاستدلال، فنجدهم يعتمدون على العقل والنصوص الشرعية في نفس الوقت، ولهذا لا تجد موقفا من مواقفها، إلا ونجده مدعما بالعقل، أي بالأدلة العقلية، وفي نفس الوقت بالأدلة الشرعية. مع تأويل النصوص الشرعية في حالة تعارضها مع العقل.

المطلب الثاني - تصنيف القيم عند الأشاعرة:

الأشاعرة فرقة كلامية إسلامية، قامت على يد أبي الحسن الأشعري، على أنقاض المعتزلة، بعد ما اختلف مع شيوخه حول بعض المسائل الكلامية، منها العلاقة بين العقل والنقل، حرية الانسان، مرتكب الكبيرة، وبالإضافة على مؤسسها نجد العديد من اعلام المسلمين السنة ينتسبون لها كما هو أبي حامد محمد الغزالي.

أما في العصر الحديث فقد مثلها بصورة أوضح محمد عبده في كتابه رسالة التوحيد، وقد ظل الأشاعرة إلى يومنا يشكلون غالبية أهل السنة من المسلمين، وسيكون من المهم هنا الحديث عن تصنيف القيم من وجهة نظر هؤلاء. أولا - الخلفية الفكرية:

سيكون من الضروري أن نقدم الخلفية الفكرية لهذه الفرقة، لما في ذلك من علاقة وطيدة بين هذه الخلفية وطبيعة القيم الناتجة عنها، ومن ثمّ يسهل علينا تصنيف هذه القيم.

قلنا قبل قليل أن الأشاعرة فرقة كلامية إسلامية تمثل أهل السنة والجماعة، ويعود نسبها إلى أبي الحسن الأشعري على بن اسماعيل بن اسحاق بن سالم بن اسماعيل بن عبدالله ابن موسى بن بلال بن أبي بردة بن ابي موسى الأشعري.

وعن الكيفية التي ظهرت فيها هذه الجماعة ،يقول دي بور : " ظهر بين المعتزلة رجل كانت رسالته أن يتوسط بين مختلف الآراء، ويقيم بناء المذهب، الذى برز في المشرق، ثم في سائر بلاد العالم الاسلامي بأنه مذهب أهل السنة"⁶.
ومنه نستطيع تلخيص أهم المبادئ الذي قام عليها المذهب الأشعري على النحو التالي :

- أعطى الله ما يليق به، دون أن يحفف في حق الانسان.

- أنكر التشبيه الذى جاء به خصوم المعتزلة؟

- نزه الذات الالهية .

- التفريق بين كلام الله القديم، وبين الكتاب الذى هو بين أيدينا ، وهو

حادث .

- قل بنظرية الكسب، التي تعد وسط بين موقف المعتزلة، وموقف

خصومهم، فيما يتعلق بحرية الانسان .

- نسبة الخير والشر.

نحب في الأخير أن ننقل على القارئ الكريم، حادثة متواترة عن الأشعري، حيث تروى كتب الفرق أن هذا الأخير، ظل فترة تجاوزت الأربعين سنة معتزليا، غير أنه سرعان ما لاحظ أنه لا يمكن تبرير بعض الاحكام وفقا لهذا التصور ، مما دفعه إلى طرح ثلاثة أسئلة على أستاذه في أمر : "ثلاثة إخوة كان أحدهم برا تقيا والثاني كان فاسقا شقيا، والثالث كان صغيرا فماتوا ، فكيف حالهم؟

الجبائى : أما الزاهد ففي الدرجات، وأما الكافر ففي الدرجات، وأما

الصغير فمن أهل السلامة .

الأشعري : إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد، هل

يؤذن له؟

⁶ - د ت ، ج، دي بور:ص125.

الجبائي: لا ، لأنه يقال له أن أخاك إنما وصل إلى هذه الدرجات بسبب طاعته الكثيرة، وليس لك تلك الطاعات .

الأشعري: فإن قال ذلك الصغير : التقصير ليس مني، فإنك ما أبقيتني ولا أقدرتني على الطاعة .

الجبائي: يقول البارئ جل وعلا: كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت، وصرت مستحقا للعذاب الاليم، فرأيت مصلحتك.

الأشعري: فلو قال الاخ الكافر: يا إله العالمين، كما علمت حاله، فقد علمت حالي، فلها راعيت مصلحته دوني؟

الجبائي : إنك مجنون.

أما أهم مؤلفات الرجل، فيمكننا الإشارة إلى أهمها: مقالات الاسلاميين و اختلاف المصلين، الابانة في أصول الديانة، اللع، الاسماء والاحكام، وأخيرا الرد على المجسمة.

ثانيا - تصنيف القيم :

وفقا لما تمتاز بها الأشعرية و ما قامت عليه ، نستطيع أن نصنف قيمها إلى ثلاثة أصناف ، وهذا بحسب مصدرها بحيث نستطيع ترتيبها على النحو التالي:

1 - القيم التي مصدرها النص المقدس (النقل):

نقصد هنا بالقيم النقلية عند الأشاعرة ، مختلف أشكال القيم التي مستقاة من القران الكريم، ومن سنة النبي محمد صلوات الله عليه وسلامه، وفي هذا نجد فيصل بدير عون يقول: " إن السمة الرئيسية التي يتسم بها مذهب الأشاعرة إخضاعهم العقل للدين، صحيح أنهم فهموا الدين بالعقل ودافعوا عنه بالعقل على جانب دفاعهم بالنقل، إلا انهم في المسائل التي وجدوا أن العقل يتعارض فيها مع النقل ضخوا بالعقل جانبا أو على الاقل أخضعوه للنقل.

و لهذا لم يضعوا أصولا للعقيدة الاسلامية، بل وضعوا منهجا ، لأنهم رأوا أن الكتاب والسنة صريحان و واضحان في هذه المسألة، وما على العقل البشري

إلا أن يضع القواعد المنهجية التي يصل من خلالها إلى هذه الأصول، والتي من خلالها أيضا يستطيع فهم الاصول والدفاع عنها"⁷.

ويبرر هنري كوربان تحول أبي الحسن الأشعري عن الاعتزال بقوله: "لقد أتخذ الأشعري من المعتزلة موقفا معارضا وذلك لأمرين اساسيين:

- أن إعطاء الاهمية المطلقة للعقل لا يفضى الى دعم الدين، كما زعم المعتزلة، بل أن ذلك على العكس يفضى إلى نفي الدين و إلى استبدال الايمان بالعقل. إذ ما قيمة الايمان . إذ ما قيمة الايمان بالله إذن وبالكتاب المنزل مادام العقل بحد ذاته أسمى و أرفع منة المعطيات الدينية.

- ينص القرآن غالبا على أن الايمان بالغيب مبدأ أساسي في الحياة الدينية إذ انهار انهارت معه أركان الدين، ولكن الغيب أمر يتجاوز حدود البراهين العقلية، فاتخذ العقل كقياس مطلق في أمور العقيدة يتنافى والحالة هذه مع مبدأ الايمان بالغيب"⁸.

نستطيع أن نشير إلى بعض القيم التي اتضح فيها ترجيح الأشاعرة للنقل على العقل، كما هو الحال في إشكالية الحرية، حيث يقول هؤلاء بنظرية الكسب، وإشكالية الصلاح والاصلاح، العلاقة بين العقل والنقل.

2 - القيم العقلية:

الدارس لمذهب الأشاعرة ، يجد أن هؤلاء رغم تقديمهم للنقل عن العقل، يحترمون العقل احتراماً كبيراً، ويجعلون له مكانة في تحديد القيم والاحكام، عكس خصومهم من المعتزلة الذين بالغوا في الاعتداد بالعقل، أو المحدثين الذين نجدهم يلغون كل دور له.

7 - أحمد محمود صبحي: ص 271.

8 - هنري كوربان : تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ترجمة نصير عروة ، حسن قبيسي منشورات عويدات، بيروت لبنان، ص183.

و هكذا نجدهم يقفون بين تيارين متناقضين في الفكر الاسلامي احدهما يطلق عليه المعطلة وهم المعتزلة، و الاخر يطلق عليه مصطلح المشبه و هم خصوم الاتجاه العقلي .

3 - القيم التوفيقية:

تظهر نزعة الأشاعرة التوفيقية بين العقل والنقل بصورة واضحة في مختلف الحلول التي قدمتها لمشكلات عصرها، هذا ما يذهب إليه هنري كوربان عندما يقول: " يظهر لنا أن الأشعري يحاول من خلال مذهبه أن يوفق بين طرفين ، وتظهر نزعته هذه في مختلف الحلول التي يقدمها، من هنا لرواج الذي لاقته أفكار الأشعري ومذهبه بين السنة في الاسلام خلال عدة قرون"⁹ .

يعلق دي بور على هذه النزعة بقوله : " لم يكن الأشعري في تفصيله لمذهبه مبتكرا من أي وجه، ولم يفعل أكثر من جمع الآراء التي وصلت اليه ، والتوفيق بينها، ولم يسلم في هذا من التناقض ، ولكن النقطة الجوهرية أنه في مباحثه في أمر الكون، وفيما يتعلق بالإنسان وبالحياة الاخرة ولم يبعد عن نصوص السنة ، ثبिता لأفئدة المتقين، وأنا مذهبه في الكلام كان يرضى عقول الناس ، حتى أهل الثقافة العالية منهم ، وذلك أنه فيما يتعلق بذات الله ينزع إلى التنزيه عن الجسمانيات"¹⁰

غير أن المتمعن في ما جاء به الأشعري يجد أن الرجل لم يكن يسعى إلى الابتكار الذي يتحدث عنه دي بور ، فهو لم يكن يسعى إلى أن يضيف شيئا لم يكن موجودا في الاسلام، وإنما كان يسعى إلى استخلاص منهج جديد لفهم الدين، والدفاع عنه، بعدما وقف على عجز المناهج الموجودة.

⁹ - هنري كوربان : ص 183 .
¹⁰ - المرجع نفسه : ص 126 .

وفقا لمنهج الأشاعرة نستطيع القول أن هذه الجماعة، رغم كونها لم تعرف تصنيف القيم بالمفهوم الذي نتحد عنه هنا، إلا أننا نستطيع الحديث عن تصنيف أشعري للقيم، كما عرضناه سالفاً.

المطلب الثالث - تصنيف القيم عند الشيعة:

الشيعة في الاصل هم أنصار الامام علي بن أبي طالب، رابع الخلفاء الراشدين وابن عم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، و زوج ابنته فاطمة الزهراء، ويعود بروز هذا التيار السياسي في الاصل إلى البدايات الأولى للإسلام. أولاً : الخلفية الفكرية:

بدأت ظاهرة التشيع في الاصل كحزب سياسي ، غير أنها سرعان ما تحولت إلى مذهب ديني يجمع أنصاره، ويستعين بنصوص من الحديث و القرآن لدعم وجهة نظره في الخلافة ، إلا أن تعقد الحياة السياسية والدينية والاجتماعية، وتباين و اتساع الخلاف بين المسلمين، جعل الشيعة ينقسمون بدورهم إلى فرق عدة : منها الاثنا عشرية ، الزيدية ، الاسماعلية، وغيرها.

لا يمثل الامام علي بن أبي طالب بالنسبة للشيعة القائد السياسي فحسب ، وإنما هو زيادة على ذلك يعتبر السلطة العلمية العليا للديانات السماوية الثلاثة، وهذا ما يفهم مما يرويه هؤلاء - أي الشيعة - عن علي أنه قال: "أما لو ثبت لي وسادة وجلست للناس لحكمت بين اهل القرآن بالقرآن، وبين أهل التوراة بالتوراة، وبين اهل الانجيل بالانجيل، ولما اختلف اثنان في حكم من احكام الدين"¹¹

وهكذا نجد اهتمام الشيعة بالقيم عظيماً ، مما يدفعنا إلى البحث عن تصنيف لهذا الموضوع انطلاقاً من تصوراتهم ، غير أن هذا الامر تقف دونه مجموعة من المعوقات المعرفية ، لعل أهمها تعدد فرق الشيعة، ومع هذا نحاول أن

¹¹ - نقلا عن حمّو النقاري: ص 92.

نقدم تصنيفا جامعا للقيم وفق هذا ، مراعين في ذلك الاطار العام للمذهب، كما فعلنا مع الأشاعرة ، مع علمنا بأن الأشاعرة فرقة واحدة بينما الشيعة فرق عديدة. ثانيا - تصنيف القيم:

تلعب القيم دورا بارزا في تحديد طبيعة التشيع، ذلك أن هذا المذهب قام أساسا على الانتصار لقيم الحق والخير، ومحاربة قيم الظلم والاستبداد، والالتزام بمختلف مظاهر القيم الاسلامية الاصيلية.

بغض النظر إذا كانت هذه القيم سياسية أو اخلاقية، ذلك أن انفراد الشيعة بهذا الجانب جعل منهم مذهب متفردا في هذا الجانب، مما يدفعنا على وضع تصنيف لهذه القيم على النحو التالي :

1 - قيم الخير والحق:

يعتبر الشيعة أنهم حملة تراث أهل البيت وقيمهم، ويرون أن هذه القيم جسدها بشكل صريح الحسن والحسين رضوان الله عليهما، سواء أتجلى ذلك في التضحية بالسلطة رغبة في تجنب دماء المسلمين، وحرص على وحدتهم، كما هو شأن الحسن بن علي الذي تخلى عن الخلافة لمعاوية حقنا للدماء.

أو في محاربة الظلم والخروج عن الحاكم الظالم كما فعلها الحسين بن علي في ثورته على يزيد بن معاوية، رغم أن عوامل النجاح والنصرة لم تتوفر له. وقد مثلت الكيفية التي استشهد بها و التمثيل بجسده الشريف قمة الظلم والاستبداد حسب الشيعة، الذين نجدهم يندمون على عدم الخروج مع الحسين و التهرب من نصرته.

ودون شك كانت لهذه الافعال الشائنة تأثيراتها السلبية في المجتمع، حتى انها وجدت من يستغلها لصالحها وتوجيهها وجهة تخالف الاسلام نفسه ، وهذا ما تنبه اليه محمد أبو زهرة حيث يعتبر أن مقتل الامام الحسين بن علي وما رافقه من مظالم كبيرة كان له : " أثر بالغ في النفوس ... وقد استغله بعض من

أولئك الذين يستغلون العاطفة القوية البريئة لينصرونها ، ويعلنوا انحرافهم من وراء نصرها ، وقد كان الاستغلال شديدا"¹² .

هكذا نجد قيم الشيعة تتشكل بداية من القيم التي تبناها أهل البيت ، غير أنه سرعان ما دخل التشيع الكثير من خصوم بني أمية بداية ، ليتحول إليه في ما بعد كل ناظم على الدولة الأموية من مختلف الملل والنحل ، متخذين محبة أهل البيت ستارا يتخفون به، مما جعلهم ينقسمون إلى العديد من الفرق ، منها المتطرفة، ومنها المعتدلة، منها القريبة من السنة ، ومنها القريبة من النحل الفارسية .

2 - قيم الباطل والظلم:

في مقابل قيم الخير والمحبة والجمال والحق التي يمثلها أهل البيت، نجد الشيعة ضد قيم الشر والقبح والباطل، التي يمثلها بني أمية، وهكذا فكل ظالم وخارج عن الملة وفاسق فهو يزيدي، بينما نقيضه ممن يمتاز بالمروءة والايان والاخلاق الحسنة فهو حسيني .

و ينقل عن جعفر الصادق أنه قال معبرا عن قيم خصوم آل البيت :
يا فلان لقينا من ظلم قريش إيانا و تظاهرهم علينا و ما لقي شيعتنا و محبونا من الناس ما لقينا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وأخبرنا أننا أولى الناس بالناس ، فتمالأت علينا قريش حتى أخرجت الأمر من معدنه، واحتجت على الانصار بحقنا و حجتنا ، ثم تداولتها قريش واحد بعد واحد ، حتى رجعت إلينا ، فنكثت بيعتنا، ونصبت الحرب لنا، ولم يزل صاحب الأمر في صعود كؤد حتى قتل فبويع الحسن ابنه و عوهد، ثم غدر به وأسلم ، و وثب إليه أهل العراق حتى طعن بخنجر في جنبه، ونهب عسكره، وعولجت خلاخيل أمهات أولاده، فوادع معاوية وحقن دمه ودم أهل بيته ، وهم قليل حق قليل .

ثم بايع الحسين من أهل العراق عشرون ألفا ثم غدروا به وخرجوا عليه وبيعته في أعناقهم وقتلوه ، ثم لم نزل أهل البيت نستدل و نستضام ونقصى و نمتن

¹² -: محمد أبو زهرة : الامام الصادق حياته وعصره ارؤه و فقهه، دار الفكر العربي ، ص 93.

ونحرم و نقتل، و نخوف، ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا ، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وحوودهم موضعاً يتقربون به على أوليائهم وقضاء السوء في كل بلدة، فحدثوهم بالأحاديث الكاذبة الموضوعة المكذوبة ، ورووا عنا ما لم ننقله، وما لم نفعله ليبغضونا إلى الناس ، وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد مقتل الحسين، فقتلت شيعتنا في كل بلدة وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة، ومن يذكر بحبنا والانتقاع إلينا سجن أو نهب ماله، أو هدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمن عبيد الله بن زياد قاتل الحسين ثم جاء الحجاج فقتلهم ، وأخذهم بكل ظنة وتهمة، حتى إن الرجل ليقال له زنديق أحب إليه من أن يقال عنه من شيعة علي¹³

وقد ذهب يزيد بن معاوية بعيد في التنكيل بمخالفيه، ومما يروى عنه من اشعار بعد أن تغلب على الانصار¹⁴:

ليت أشياخي بيدر شهدوا ... جزع الخرج من وقع الاسل
لأهلوا واستهلوا فرحا ثم قالوا : يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم ... وعدلنا ميل بدر فأعتدل
لست من عقبه إن لم انتقم ... من بني احمد ما كان فعل
لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل

وبغض النظر عن مدى صحة هذه الايات الشعرية أو كذبها ، فإن الانقسام السياسي في المجتمع الاسلامي سرعان ما تحول من إشكالية الاحقية بالسلطة إلى القيم والعقائد. وصار هذا الانقسام يزداد، فكما تقدم الزمن الا وازاد شروخا، بدلا من أن يزول رغم مجهودات التقريب التي بادر بها أهل الخير من الطرفين في مختلف العصور والامصار .

المطلب الرابع - تصنيف المتصوفة للقيم:

¹³ - نقلا عن : محمد أبو زهرة : الامام الصادق حياته وعصره ارؤه و فقهه، ص77،78.
¹⁴ - تاريخ ابن كثير : (202:8) نقلا عن : ادريس الحسيني: الخلافة المغتصبة، أزمة تاريخ أم أزمة مؤرخ؟ دار النخيل، بيروت ، سنة 1416 هـ ، 1995م ، الطبعة الثانية ، ص 19.

التصوف Sufism هو نظام حياة وفلسفة في نفس الوقت، فهو نظام حياة لكون المتصوفة يعيشون حياة التصوف، و أما كونه فلسفة فيعود ذلك إلى كون أهله يربطون افعالهم بتصورات متناسقة مترابطة.

التصوف في مفهوم عبد الحفني: " من الصفاء بمعنى أن الصوفي قد صفى قلبه لذكر الله، أو من الص بمعنى الصوفي في الصف الاول من الواصلين، أو من الصفة بضم الصاد، نسبة إلى اهل الصفة من فقراء المسلمين الذين بنى لهم الرسول صفة خارج مسجد المدينة لبيتوا فيها، وربما من كلمة فيلوسوفوس بمعنى حب الحكمة، والأغلب أنها مشتقة من الصوف لباس الصوفية، حيث كانت عاداتهم أن يلبسوا جبة أو مدرعة من الصوف، فأطلقوا على الزاهد منهم إسم الصوفي أو المسوحي نسبة إلى المسح"¹⁵.

أولا - الخلفية الفكرية:

من جهة أخرى نجد التصوف لا يرتبط بدين معين، فلكل ديانة من ديانات العالم متصوفيا، بل وأن لكل ملة أو نحلة دينية متصوفيا، فهناك التصوف البوذي، والتصوف اليهودي و التصوف المسيحي، علاوة على التصوف الاسلامي، ولمذاهب هذا الدين الاخير متصوفته، فهناك التصوف السني والتصوف الشيعي.

يعتبر دي بور أن التصوف الاسلامي، يمثل نظاما عمليا بصيغة دينية روحية، متخذة في ذلك فكرة اساسها نظري: " ولم يكن بد من أفعال لها أسرارها، وأشخاص يقربون ما بين الإنسان وربه، ويحاول هؤلاء الأشخاص، أن يطلعوا على اسرار تلك الأفعال، ثم يظهروا خواص مرديهم عليها، وأن يتخذوا لأنفسهم في سلسلة مراتب الوجود مكانا يصلون فيه بين الله والناس"¹⁶.

من جانب آخر نستطيع تلخيص أهم المبادئ التي تجمع بين مختلف فرق وجماعات التصوف الاسلامي ، على النحو التالي :

- لا فاعل في شيء إلا الله.

¹⁵ - عبدالمنعم الحفني: الموسوعة الفلسفية، دار المعارف للطباعة والنشر ، سوسة تونس، ص138.

¹⁶ - ت.ج.دي بور : ص135.

- وحدة الذات الالهية .
- تصوراتنا تأتي إلى النفس من الخارج .
- النفس عبارة عن شعور باللذة والالم؟
- أهم القيم التي قام عليها التصوف : المحبة ، العرفان ، الخوف ، الرجاء .
- السعادة ليست معرفة، ولا معرفة وإنما هي اتحاد في المحبوب .
- وقد تطورت بعض هذا المبادئ عند غلاة المتصوفة، فصارت على النحو التالي :

- لا موجود في كل شيء إلا الله .
- الله موجود في كل شيء، وهذا ما صار يعرف بوحدة الوجود .
- أما عن أهم المتصوفة ، فنستطيع أن نتحدث عن العديد من الاسماء ، نذكر منهم: الحلاج، ابن عربي، رابعة العدوية وغيرهم كثير، مع الملاحظة أن كتاباتهم التي تركوها عبرت بدقة عن روح فلسفتهم ، كما هو شأن : فصوص الحكم، الفتوحات المكية .
- ثانيا - تصنيف القيم :

لما كان التصوف عبارة عن قيم من نوع خاص، فإن الحديث عن تصنيف واحد ووحيد لقيمه، أمر في غاية الصعوبة، بسبب تناقض و اختلاف وجهات نظر المتصوفة، إلا أننا مع هذا

1 - قيم العارفين:

العارف في مفهوم المتصوفة، هو الانسان الذي بلغ درجة مقبولة في التصوف، فتفتح أمامه ميدان المعرفة ، ويتصف العارف بكونه صاحب قيم وسلوكيات مميزة، تجعل منه نموذج للإنسان الكامل العارف، القريب من ربه، وقدما عبرت رابعة العدوية (100هـ، 717م - 180هـ ، 796م) عن قيم المحبة التي يتصف الصوفي، حينما قالت¹⁷:

¹⁷ - نقلا عن عبد مهنا: معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والاستلام، دار الكتب، بيروت ن لبنان ص91.

راحتي يا أخوتي في خلوتي ... وحببي دائما في حضرتي
لم أجد يا أخوتي عن هواه عوضا ... وهواه في البرية محنتي
حيثما كنت أشاهد حسنه ... فهو محرابي إليه قبلتي
إن أمت وجدا وما ثم رضى ... وأعنائى في الورى وشقوقي
وقالت أيضا¹⁸:

عرفت الهوى منذ عرفت هواك وأغلقت قلبي عن سواك
و كنت أناجيك يا من ترى خفايا القلوب ولسنا نراك
أحبك حين حب الهوى و جبالنا نك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عن سواك
وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا

وذاك

و جاء في طبقات الصوفية لأبي عبد الله السلمى قوله: " سئل أبو يزيد
عن درجة العارف، فقال: ليس هناك درجة . بل أعلى فائدة العارف وجود
معروفه...العابد يعبد به بالحال ، والعارف الواصل يعبد به في الحال"¹⁹
في تحديد مفهوم العارف الصوفية ، كتب عبد المنعم الحفني قائلا:
قال ابن العربي : العارف من أشهده الرب عليه فظهرت الاحوال عن نفسه،
والمعرفة حالة، وقال ابن معاذ: إذا ترك العارف أدبه عند معرفته فقد هلك مع
الهالكين، وقال ذو النون: علامة العارف ثلاثة: لا يطفى نور معرفته نور ورعه،
ولا يعتقد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم، و لا يحمله كثرة نعم الله
تعالى عليه وكرامته على هتك أستار محارم الله تعالى ... وقيل اقسام العارفون على
ثلاثة أصناف : صنف منهم ليس لهم من الحق نفس، و صنف منهم يحثمهم الوجد

18 - المرجع السابق: ص 92.

19 - أبو عبد الله السلمى: طبقات الصوفية ، تحقيق نورالدين سريبا ، سنة 1406هـ، 1986م، الطبعة

الثالثة ، ص69.

إلى الحال يتولاهم الحق بالحفظ فيه، وصنف منهم غاب عنهم العرف والعادة ،
وأستوى عندهم النطق والصمت وغير ذلك بعناية الحق لهم، فإن سكتوا فله
يسكتون، وإن نطقوا فعن الله ينطقون.

وقيل اقسام العارفين سبعة...منهم أهل التقليد...أهل النظر...أهل
التزيه...أهل التشبيه...أهل العجز، أهل الاتحاد... أهل التحقيق²⁰.

يتحدث محمود قاسم، عن الكيفية التي نظر بها محي بن عربي لهذه
المسألة فيقول: " فإن متصوفا متفلسفا وهو محي الدين بن عربي، سلك مسلك
الزراية بالفقهاء، وأهل الظاهر والفلاسفة، الذين وصفهم جميعا بأنهم من المحجوبين
على العلم الحقيقي، ويعني به العرفان الصوفي، ومع أنه يهاجم الفلاسفة ، فقد يمكن
القول أنه فيلسوف من طراز فريد، وبانه عرض الاسلام عرضا جديدا وفلسفيا
في نفس الوقت، وتقوم آراؤه في أعماقها على فكرة التأويل الباطني للنصوص
والاحاديث الشريفة، وهو يذهب في هذا التأويل مذهبا عجيبا، إذ يرى أن التأويل
هو السبيل إلى فهم حقيقة التنزيل"²¹.

وبهذا نستطيع القول أن قيم العارف تمثل الانموذج لقيم الصوفية، ومع
هذا هل هناك قيما لغير العارفين، فماذا نقصد بها وفيما تتمثل ؟

2- قيم الغافلين:

يعتبر المتصوفة من لا يتبع طريقهم غافلا وحب تنبيهه، ولهذا وجدناهم
يصفون هؤلاء بالغافلين، ويرى عبد المنعم الحفني أن الغفلة عند المتصوفة عبارة عن
افة من الآفات، وهي: " الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لاسيما فيما
يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأصول الدين، ومن الامثلة التي ذكرها الغزالي أن لا
يصح أن تقول عبدي وأمتي، لأننا جميعا عبيد الله، ونساؤنا جميعا إماء الله، بل

²⁰ - عبد المنعم الحفني : معجم مصطلحات الصوفية ، دار المسيرة ، بيروت، سنة 1407هـ ، 1987م
، الطبعة الثانية ، ص179، 180.

²¹ - محمود قاسم : نصوص مختارة من الفلسفة الاسلامية ، ص 27.

تقول غلامي و جاريتي²² "ومن القيم أو الصفات التي يمتاز بها الغافل، التكبر، الرياء، النفاق .

وهكذا نستطيع القول أن الفلسفة الاسلامية، سواء تجسدت في الفلسفة المشائية، أم في علم الكلام أو حتى في التصوف ، فقد كانت فلسفة للقيم بإمتياز، و من ثم أمكننا القول أنه يمكننا استخلاص منها تصنيفات للقيم ، أو بالأحرى أمكننا استخلاص تصنيفات مختلفة للقيم، تقترب من بعضها أحيانا وتبتعد أحيانا أخرى غلا أن ما يجمع بينها ذلك التناسق الواضح مع الاسلام الذي تنطلق منه.

²² - عبد المنعم الحفني : معجم مصطلحات الصوفية: ص 229.